﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32]

ربطُ صِدقيّةِ الكتابِ الموحَى به بأقسامِ المُصْطَفَيْن من العبادِ ودرجاتِهم

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن قَصَرَتِ الآيةُ السّابقةُ الحَقَّ على الكتابِ - وهو القرآنُ - ادّعاءً للمبالغة، بيَّنت هذه الآية أنّ هذا الكتاب الحَقَّ قد أَورَثَه اللّهُ تعالى أمّةَ محمد ﷺ، فهو الرّسول الخاتم، وكتابه هو الكتاب الخاتم، وأمّته هي آخر الأمم، فكانوا - على فضلهم جميعًا - في استقبالهم له على ثلاثة أقسام ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾: (ورث) من الوِرْث، والميراثُ أَصْلُهُ الواوُ، وهوَ أَنْ يَكونَ الشَّيْءُ لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصيرَ إِلَى آخَرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ، قالَ الشاعر:

وَرِثْناهُنَّ عَنْ آباءِ صِدْقَ *** ونورِثُها إذا مِتْنا بَنينا[1].

ويقال لكلّ من حصل له شيء من غير تعب: قد ورِثَ كذا، ويقال لمن خوِّلَ شيئًا مهنّئًا: أورِثَ، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ [الزخرف: 72] ومعنى ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ في الآية، أي: أَعْطَينا[2].

2) ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾: أصل (صفو) يدُلُّ عَلَى خُلوصٍ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ؛ مِنْ ذَلِكَ الصَّفاءُ، وهوَ ضِدُّ الكَدَرِ؛ يُقالُ: صَفا يَصْفو، إذا خَلَصَ[3]، والاصْطِفاءُ: تناولُ صَفْوِ الشّيءِ، كما أنّ الاختيار: تناوُلُ خَيْرِه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 438، والسّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 107.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفو).

والاجتباء: تناولُ جَبايَته، واصْطِفاءُ اللهِ بعضَ عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافيًا عن الشَّوْبِ الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يَتَعرَّ ذلك من الأوّل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: 75][1]، ومعنى ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ في الآية: اخترْنا وفَضَّلْنا[2].

3) ﴿مُّقۡتَصِدٞ﴾: (قصد) يَدلُّ أصله على: إتْيانِ شَيْءٍ وأَمِّهِ؛ تقول: قَصَدْتُهُ قَصْدًا ومَقْصَدًا، ويدلُّ أيضا عَلَى اكْتِنازٍ في الشَّيْءِ، ومنه: ناقةٌ قَصيدٌ أي مكتنزةُ اللّحم ممتلئة[3]، والقَصْدُ: استقامة الطّريقة، والقَصْدُ في المعيشة ألا تُسْرِف ولا تَقْتُر[4]، والاقْتِصادُ على ضرْبَيْن: أحدهما محمود على الإطلاق، وذلك فيما له طرفان: إفراطٌ وتفريط كالجودِ، فإنّه بين الإسراف والبخل، وكالشّجاعة فإنّها بين التّهوّر والجُبْن، ونحو ذلك ... والثّاني يكنّى به عمّا يتردّد بين المحمود والمذموم، وهو فيما يقع بين محمود ومذموم، كالواقع بين العَدْل والجَوْر، والقريب والبعيد، وعلى ذلك قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾[5].

4) ﴿سَابِقُۢ﴾: أَصْلُ (سبق) يدُلُّ على التَّقْديم[6]، والسَّبْق: التّقدّم في السّير، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ [النازعات: 4]، والاسْتِباقُ: التَّسابُقُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ [يوسف: 17] ثم يُتَجَوَّز به في غيره من التّقدّم، كما في قوله تعالى: ﴿سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ [طه: 129]، أي: نَفَذَتْ وتقدّمت، ويُستعار السَّبْقُ لإحراز الفَضْل والتّبريز، وعلى ذلك: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: 10]، أي: المتقدّمون إلى ثواب الله وجنّته بالأعمال الصّالحة[7]، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾.

5) ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾: أصلُ (فضل) يَدُلُّ عَلَى زيادَةٍ في شَيْءٍ، والفَضْلُ: الزّيادَةُ والخَيْرُ، والإفْضالُ: الإحْسانُ[8]، والفضيلة: الدّرجة والرِّفعة في الفضلِ، والفَضْلُ: الزّيادة عن

(1) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 438.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصد).
(4) الخليل، العين: (قصد).
(5) الرّاغب، المفردات: (قصد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبق).
(7) الرّاغب، المفردات: (سبق).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).

الاقتصاد، وذلك ضَرْبان: محمود: كفضل العلم والحِلْم، ومذموم: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، والفَضْلُ في المحمود أكثر استعمالًا، والفُضولُ في المذموم[1]، والتَفَضُّل: التَطَوّل على غيرك، ومنه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: 24] فمعناه: يريد أنْ يكونَ له الفضلُ عليكم في القَدْر والمنزلة[2]، وأشار بـ ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ هنا إلى توريث الكتاب، أو الاصطفاء، أو السَّبْق[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أقسامُ المؤمنين في الاستجابةِ للكتابِ المبينِ

يُخبِر الله تعالى عن هذا الكتاب وهو القرآن الكريم الذي هو الحق بأنه أَوْرَثَه مَن اصطفاهم من عباده لتحمُّله، وهم أمة محمد ﷺ الذين انقسموا في تجاوبهم معه وافترقوا ثلاثَ فِرَقٍ، "فمنهم ظالم لنفسه بغلبة سيئاته على حسناته، ومنهم مقتصدٌ لم يُسرف في السيئات ولم يُكْثِر من الحسنات، ومنهم سابقٌ غيرَهُ بفعل الخيرات بتيسير الله، ذلك السبق بالخيرات هو الفوز الكبير من الله"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ في السّياقِ:

الاختلافُ في دلالةِ الحرفِ العاطفِ مفيدٌ للبيانِ المتوخَّى

﴿ثُمَّ﴾ عاطفة لما بعدها على ما قبلها، أي على جملة: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ وهو من عطف الجمل، مع إفادتها التّراخي الذي هو من أَخصِّ معانيها، ونوع هذا التّراخي مُختلَفٌ فيه:

فقيل هو التّراخي الزّمني؛ على أن يكون "في العطف بحرف ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى أنّ ما أوحي إلى النّبي ﷺ حتى نزول هذه الآية، لم يكن إلا بعضًا من الكتاب، وأن ميراث المسلمين لهذا الكتاب لم

(1) الرّاغب، المفردات: (فضل).
(2) الخليل، العين: (فضل).
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 259.
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 648.

يأتِ بعدُ، لأنّ الكتاب لم يتمَّ نزولُه، وسيتمُّ ذلك بعد بضعِ سنوات، ولهذا جاء العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ ليفيد هذا التَّرتيبَ والتّراخي في الزّمن، بين نزول هذه الآية وبين تمام نزول القرآن"[1] وعلى هذا يكون سبب التّعبير بالماضي في قوله ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ بدل المضارع (نورثه) مُرادًا به تَحقُّقِ الوقوع، فيكون اسْتعارَة باعْتبار الزّمان[2] وذلك باستعارة الماضي للمضارع وهي استعارة تَبَعيَّة، أو أنّه على تأويل: ثم حَكَمْنا وقَضَيْنا بتوريثه[3].

وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ للتّرتيب والتّراخي الرُّتْبيّ بهدف الارتقاء في الإخبار عن القرآن تنويهًا بشأنه، وكذلك تنويهًا بشأن المُنْزَلِ عليه ﷺ "فبعد أن ذُكِّر بفضيلة كتابه، وهو أمرٌ قد تقرَّر لديه، زيدَ تبشيرًا بدوام كتابه وإيتائه أُمَّةً هم المُصطَفَوْن من عباد الله تعالى، وتبشيره بأنّهم يعملون به ولا يتركونه كما ترك أممُ مَن قبله كُتبَهُم ورسلَهم، لقوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾الآية، فهذه البشارة أهم عند النّبي ﷺ من الإخبار بأنّ القرآن حقٌّ مصدِّقٌ لما بين يديه، لأنّ هذه البشارة لم تكن معلومةً عنده فوَقْعُها أهمّ"[4] وهذا التّحليل مبنيٌّ على أنّ المراد بالكتاب القرآن الكريم، ولا ريب أنّه الأظهر وأنّه المعهود في السّياق، خلافًا لمن ادّعى أنّ المراد جنس الكتب[5]، فإنّ السّياق لا يظهره كما أظهر السابق.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيْبةِ إلى التكلّمِ:

لما قال سبحانه في تذييل الآية السّابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ بأسلوب الغائب، قال هنا بأسلوب التّكلم مُلتفتًا إليه ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ تعظيمًا لهذا الإيراث، وتنويهًا بشأن رُكْنَيْه وهما الموروث

التّنويهُ بشأنِ القرآنِ والأمّةِ الوارثةِ من مقاصدِ الجملةِ الآنفةِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 11/ 886.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 65.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 152، والطِّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 12/ 654.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 311.
(5) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 35.

– القرآن الكريم – والوارثون وهم أمَّتُه ﷺ، فإنّ مثل هذا الإيراث العظيم لا يكون إلا من الله العظيم، ولذا أسنده إلى ضمير العظمة، وقدّم قوله: ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ في الكلام لكونه نعمة جسيمة وأنّه سبب لسائر النّعم[1] فقد نالت الأمة خيرَيِ الدّنيا والآخرة بهذا الإيراث لذلك الكتاب العزيز.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

حملُ الجملةِ على أكثرِ من دلالةٍ مفيدٌ في البيانِ لا محالةَ

قوله تعالى: ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يَحْتَمِل في ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ أن يكون معناه أعطينا؛ وحالئذٍ فالتّعبير حقيقيٌّ ولا مجازَ فيه[2]، وقيل: بل هو مجاز على ذلك، ففي ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ استعارة تبعيّة، حيث شبّه إعطاء الكتاب إيّاهم من غير كدّ ولا تعب في وصوله إليهم، بتوريث الوارث[3]، ويمكن الحمل على الاستعارة المكنيّة في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بأن يكون قد شَبَّهَه بشيءٍ يورَث، ثمّ حذف المشبّه به ودلّل عليه بشيء من لوازمه، وهو قوله: ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ ويكون السّر على ذلك لزومَ التّمسك بالكتاب، والحرصَ عليه، كما أنّ الوارث يتمسك بحقّه في إرثه ويحرص عليه.

معنى(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الكتابُ المعهودُ في العبارةِ هو القرآنُ المُعجِزُ بجدارةٍ

(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هي العهديّة والكتاب هو القرآن؛ لأنّ السّياق إنّما يدور عليه في هذه الآيات بدءًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: 29]، ثم يأتي قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ – ليبرز أنّ النّظم متلاحمٌ، وأنّ الكلام لا يزال عن نفس الكتاب الّذي هو

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 68.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 311.
(3) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 35.

القرآن الكريم المتلوّ من قبل المؤمنين، الموحى به إلى الرّسول ﷺ .

على أنّ قولًا لا يساعده النّظم إلّا بتكلّف وإبعادٍ، يرى أنّ (أل) للجنس، وأنّ المراد جنس الكتب[1] الإلهيّة المنزّلة على الرّسل، ومَنْ يرى ذلك أُلجِئَ إلى القول بأنّ المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ أعمّ من مؤمني هذه الأمّة، وبالكتاب جنس كتب الله، وبالّذين اصطفينا هذه الأمّة، ويكون ﴿أَوْرَثْنَا﴾ ماضيًا محمولًا على ظاهره، والمعنى: ثمّ أورثنا هذا الكتاب الكريم هذه الأمّة بعد إعطاء تلك الأمم الزُّبُرَ والكتابَ المنيرَ[2]، وهو خلاف الظّاهر كما يُرى.

دلالةُ مفعولَيْ ﴿أَوْرَثْنَا﴾:

غـرضُ تـقـديـرِ المفعولِ الثّاني في الذِّكرِ الاهتمامُ به وتبريزُه

على تأويل ﴿أَوْرَثْنَا﴾ بمعنى (أعطينا) فإن فعل ﴿أَوْرَثْنَا﴾ يكون ناصبًا مفعولين؛ الأول هو ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ والثّاني هو ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، قال ابن عاشور: "وكان مقتضى الظّاهر أن يكون أحد المفعولين الذي هو الآخذ في المعنى هو المفعول الأول والآخر ثانيًا، وإنما خولِف هنا فقُدِّم المفعول الثّاني لأمن اللُّبْس قصدًا للاهتمام بالكتاب المُعطى"[3].

غرضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

اللـهُ سبحانه يختارُ مَن يشاءُ لمـا يـشـاءُ لا معقِّبَ لحُكمِهِ

أوثِر التّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ دون غيره تنويهًا بشأن المخبَر عنهم الذين اصطفاهم الله تعالى لإرث كتابه، وهم أمة محمد ﷺ، وإضافة إلى مدحهم والثناء عليهم بالاسم الموصول، فإن جملة الصلة قد تَضمَّنَتْ سببَ اختيارهم لهذا الإرث، وهو كونُهم مُصْطَفَيْن من الله تعالى، فهذا الاصطفاء هو الذي هيّأهم لأن يكونوا ورثة الكتاب، وقد قال سبحانه:

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 35.
(2) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 35.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 311.

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحجّ: 75]، فهو سبحانه يختار من يشاء لما يشاء، وقت ما يشاء.

نكتةُ إسنادِ الاصطفاءِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

الـدّلالـةُ على عَظَمَةِ المُصْطَفَيْن لإرثِ الكتابِ المبينِ

أسند الاصطفاء إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ للدّلالة على عظمته سبحانه، ومن ثَمَّ عظمة هذا الاصطفاء، فعن طريقه وبواسطته اختار الله تعالى لحمل كتابه ثم بيانه والعمل به خيرَ أمة أُخرجت للنّاس وهي الأمّة المحمدية التي قال الله تعالى في حقِّها: ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: 110]، وقيل: هم علماءُ الأمةِ من الصَّحابةِ ومن بعدهم ممَّن يسيرُ سيرتَهم[1].

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾:

الـتّـعـبـيرُ بـالاصـطـفـاءِ أكملُ وأبلغُ من التّعبيرِ بغيرِهِ

عبّر هنا بكلمة الاصطفاء دون غيرها كالاختيار والاجتباء فقال: ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ للدلالة على الكمال فالتّعبير بها أكمل وأبلغ من التعبير بغيرها، فكلمة (صَفَو) التي منها الصّفاء تدُلُّ عَلَى خُلوصٍ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ[2]، والاصْطِفاءُ: تناولُ صَفْوِ الشّيءِ، كما أنّ الاختيارَ تناولُ خيرِه، والاجتباءَ تناولُ جَبايَتِهِ، واصْطِفاءُ اللّهِ بعضَ عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافيًا عن الشَّوْب الموجود في غيره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحجّ: 75][3].

وأمّا عن اختيار صيغة الماضي، فللدّلالة على تحقّقه وتقرّره، ويجوز أن يكون معنى ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: حَكَمْنا بإيراثه وقَدَّرْناه، وعلى ذلك فهو مجاز مرسل علاقته السّببية فهو من باب إطلاق السّبب على المسبّب[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 153.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفو).
(3) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 367.

دلالة الحرف ﴿مِنۡ﴾ في السّياق:

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾، يجوز أن تكون للبيان؛ على معنى أنّ المصطَفَيْن هم عبادُنا، ويجوز أن تكون للتّبعيض؛ أي أنّ المصطفين بعض عبادنا لا كلّهم[1].

نكتةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿عِبَادِنَاۖ﴾:

القصدُ إلى إضافةِ التّشريفِ بناء على تحديدِ المُرادِ بالعبادِ

في إضافة عباد إلى ضمير العظمة اتّجاهان: فإن كان المرادَ بالعباد (المصطفون) فالإضافة لتشريف العباد؛ أي أنّهم لكونهم قد اصطفاهم الله لإرث الكتاب قد شرفهم بهذه الإضافة فليس أولى منهم أحد أن يكون عبدًا لله، وإن كان المراد بالعباد جميع الخلق، والخلق فيهم المؤمن والكافر، فالإضافة لتعظيم المضاف إليه لا غير؛ إذ في المضاف من لا يستحق التّشريف بهذه الإضافة.

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمِنۡهُمۡ﴾:

تنوّعُ دلالةِ حرفِ المعنى مُفْضٍ إلى بيانِ المُرادِ من شِبْهِ الجملةِ

الفاء في قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ الآية، تفصيل وتقسيم لأحوال الّذين أورثوا الكتاب أي أُعطوا القرآن[2]، و(مِنْ) هنا، وفي بقيّة الأنواع الّتي شملها التّقسيم؛ للتّبعيض، ويجوز أن تكون للبيان على معنى: أنّ المصطفين هم عبادنا[3].

نكتةُ عودِ الضّميرِ في ﴿فَمِنۡهُمۡ﴾:

الخلافُ في عودِ الضّميرِ مُبينٌ عن المُرادِ في التّعبيرِ

الضّمير في﴿فَمِنۡهُمۡ﴾ الأظهر أنّه عائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا﴾، وذلك قول الحسن، وعليه فالظالم لنفسه من المصطفين، وقيل: هو عائد إلى ﴿عِبَادِنَاۖ﴾، أي: ومن عبادنا على الإطلاق، وهو قول ابن عبّاس وعكرمة وقتادة والضّحاك، وعليه فالظّالم لنفسه هو الكافر[4]، وفي هذا الاحتمال الثّاني جواب عما استشكله بعض أهل

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 36.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 66، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 312.
(3) السّمين، الدّر المصون: 9/ 232.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 400، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 312.

العلم عن إدراج الظّالم لنفسه ضمن المصطفين، كما نقل ذلك الشّوكاني بقوله: قد استشكل كثير مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحانَهُ جَعَلَ هَذا القِسْمَ الظّالِمَ لِنَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ المُقَسَّمِ، وهوَ مَنِ اصْطَفاهُمْ مِنَ العِبادِ، فَكَيْفَ يَكونُ مَنِ اصْطَفاهُ اللَّهُ ظالِمًا لِنَفْسِهِ؟ فَقيلَ: إنَّ التَّقْسيمَ هوَ راجِعٌ إلَى العِبادِ، أَيْ: فَمِنْ عِبادِنا ظالِمٌ لِنَفْسِهِ، وهوَ الكافِرُ[1].

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿فَمِنْهُمْ﴾:

التّقسيمُ مُسهمٌ في الإبانةِ عن المُرادِ من السّياقِ المُستفادِ

قدّم شبه الجملة ﴿فَمِنْهُمْ﴾، لأجل حصر الأقسام، ثمّ صحّة تقسيم الأصناف الموجودة في الواقع بحسبها، على معنى: هم أي المصطفون أو العباد أصناف وأقسام، منهم كذا ومنهم كذا.

الموقعُ الإعرابيُّ لقولِه ﴿فَمِنْهُمْ﴾:

من فصيحِ الدّلالةِ المؤثرةِ تسويغُ الابتداءِ بالنّكرةِ

الجارّ والمجرور (مِنْهُمْ) في مواضع وروده في الآية، متعلّق بمحذوف في محلّ رفع خبر مقدّم، والمبتدأ هو ﴿ظَالِمٌ﴾، ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾، ﴿سَابِقٌۢ﴾ وهذا التّقديم والتّأخير هو مسوّغ الابتداء بالنّكرة.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿ظَالِمٌ﴾ في السّياقِ:

الإلماحُ إلى كثرةِ أعدادِ ظالمي أنفسِهم

نَكَّر قوله:﴿ظَالِمٌ﴾ وقَدَّمَه على غيره من الأقسام، لكثرة الظّالمين أنفسهم وتفوقهم في العدد على غيرهم من أصحاب القسمين الآخرين: المقتصدين والسّابقين بالخيرات.

وفي المراد بالظّالم لنفسه على كون الضّمير في ﴿فَمِنْهُمْ﴾ عائدًا إلى اصطفينا قيل: المُرادُ به المُقَصِّرُ في العمل بالكتاب، وهو المرجئ لأَمْرِ اللَّهِ، فإن قيل: كيف يكون ظالمًا لنفسه وهو من المصطفين ورثة الكتاب؟ فالجواب: لَيْسَ مِنْ ضَرورَةِ وَرَثَةِ الكِتابِ مُراعاتُهُ حَقَّ رِعايَتِهِ، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 400.

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]، وقيلَ: الظّالمُ لِنَفْسِهِ: هوَ الَّذي عَمِلَ الصَّغائِرَ، ورجَّحه الشّوكاني معلِّلًا بأن عَمَلَ الصَّغائِرِ لا يُنافي الاِصْطِفاءَ، ولا يَمْنَعُ مِنْ دُخولِ صاحِبِهِ مَعَ الَّذينَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ[1].

معنى اللّامِ في قوله ﴿لِّنَفۡسِهِۦ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لِّنَفۡسِهِۦ﴾ لام التّقوية؛ لأنّ العامل فرع في العمل، إذ هو - أي: ﴿ظَالِمٞ﴾ - اسم فاعل[2].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾:

الواو في قوله ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ عاطفة، حيث عطفت هذه الجملة على الّتي قبلها، ليجمع بينهما في التّقسيم.

معنى (مِنْ) في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

بيانُ أنّ دلالةَ الجارِّ على التّبعيضِ والبيانِ ممّا يتمُّ به البيانُ

(مِنْ) هنا، وفي بقية الأنواع التي شملها التّقسيم معناها التّبعيض، ويجوز أن تكون للبيان على معنى: أنّ المصطفين هم عبادنا[3]، فما قيل (مِنْ) في قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ يقال كذلك في ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿مُّقۡتَصِدٞ﴾:

التّفخيمُ غرضٌ مُنبئٌ عن أهميّةِ النّكرةِ

السرّ في تنكير ﴿مُّقۡتَصِدٞ﴾ للتّفخيم من شأنهم، "والمقتصد: هو غير الظّالم نفسه كما تقتضيه المقابلة، فهُمُ الّذين اتّقوا الكبائر، ولم يَحرموا أنفسَهم من الخيرات المأمور بها، وقد يُلمّون باللَّمَمِ المعفوِّ عنه من الله، ولم يأتوا بمنتهى القُرُبات الرّافعة للدّرجات، فالاقتصادُ افتعالٌ من القصد وهو ارتكاب القصد، وهو الوسط بين طرفين يبيِّنُه المقام، فلما ذُكِر هنا في مقابلة الظّالم والسّابق،

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 400.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 361.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 232.

عُلِم أنّه مرتكبٌ حالَةَ بين تَيْنك الحالتَيْن، فهو ليس بظالم لنفسه وليس بسابق"[1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿سَابِقٌ﴾:

السّبقُ بالخيراتِ قُربةٌ بالنّوافلِ والواجباتِ

نُكِّر لفظ ﴿سَابِقٌ﴾ تفخيمًا لشأن السّابقين بالخيرات، والسّابق بالخيرات: هو الذي يأتي بالواجبات ويجتنب المحرّمات، ويتقرب إلى الله بالطّاعات والقربات والنّوافل التي هي غير واجبة[2].

بلاغةُ المجازِ في قولِه ﴿سَابِقٌ﴾:

التّعبيرُ بالسّبقِ مَكْنيٌّ به عن الإكثارِ في الخيرِ وسُبُلِه

والتّعبير عن المجتهد في التّقرّب إلى الله تعالى بفعل الواجبات وسائر أنواع القربات بقوله: ﴿سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ مجاز لإحراز الفضل؛ لأنّ السّابق يحرز السَّبَق، أو هو مجاز في بذل العناية لنوال رضى الله، وعلى الاعتبارين في المجاز فهو مكنيٌّ عن الإكثار من الخير؛ لأنّ السّبق يستلزم إسراع الخطوات، والإسراع إكثار[3].

معنى الباءِ في شِبهِ الجملةِ ﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾:

الباء في قوله: ﴿سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ للظّرفيّة، أي في الخيرات كما في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: 61] وهي الظّرفية المجازية.

معنى (أل) في لفظِ ﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾:

(أل) في ﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ للجنس، بما يشمل جنس الخيرات من الواجبات والمندوبات وسائر القربات.

نكتةُ حذفِ (الخيرات) مع أوّلِ صنفيْن:

الإيجازُ بالحذفِ اكتفاءً بالمذكورِ في السّياقِ المُدرجِ

وفي حذف (الخيرات) في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فلم يقل: (في الخيرات) فيه إيجاز بالحذف اكتفاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 312.
(2) الشّنقيطي، أضواء البيان: 5/ 490.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 313.

بذكرها في الصنف الثالث في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ فآلَ الكلام إلى تقدير ذكرها مع الصنفين السّابقين وأنّها مرادة فيهما "فيؤول إلى معنى: (ظالم لنفسه في الخيرات) و(مقتصد في الخيرات) أيضًا، ولك أن تجعل معنى ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أنّه ناقصها من الخيرات كقوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: 33] أي لم تنقص عن معتادها في الإثمار"[1].

نكتةُ التّقديمِ والتّأخيرِ بين الأصنافِ:

إجمالُ الأقوالِ المحتملةِ من حكمةِ هذا التّرتيبِ المترقّي في البيانِ

أجمل الآلوسي الأقوال في حكمة هذا التّرتيب الذي عليه الأصناف الثّلاثة في الآية، حيث قدم الظّالم لنفسه ثمّ ثنّى بالمقتصد، ثمّ ختم بالسّابق بالخيرات، وممّا ذكره في هذا:

فقَدَّم (الظّالمَ لنفسه) لكثرة الظّالمين لأنفسهم، وعَقَّبَ بالمقتصد لقلّة المقتصدين بالنّسبة إليهم، وأَخَّرَ السّابق لأنّ السّابقين أقلّ من القليل[2].

وقيل: هذا التّرتيب جاء على حسب مقامات النّاس، فإنّ أحوال العباد ثلاث: معصية ثمّ توبة ثمّ قربة، فإذا عصى العبد فهو ظالم، فإذا تاب فهو مقتصد، فإذا صحّت توبته وكثرت مجاهدته فهو سابق.

وقيل: النّكتة في تقديم الظّالم أنّه أقرب الثّلاثة إلى بداية حال العبد قبل اصطفائه بإيراث الكتاب، فإذا باشره الاصطفاء، فمن العباد من يتأثّر قليلًا وهو الظّالم لنفسه، ومنهم من يتأثّر تأثّرًا وسطًا وهو المقتصد، ومنهم من يتأثّر تأثّرًا تامًّا وهو السّابق.

وقيل: رتّب هذه الثّلاثة هذا التّرتيب، ليوافق حالَهُم في الذّكر بالنّسبة إلى ما وُعِدوا به من الجنّات في قوله سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 313.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 613.

يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ ليوافق حالهم في الحشر عند تحقّق الوعد، فأَخَّر السّابقَ الدّاخل في الجنان أوّلًا ليتّصل ذكره بذكر الجنّات الموعود بها، وذكر قبله المقتصد، وجعل السّابق فاصلًا بينه وبين الجنّات؛ لأنّه إنّما يدخلها بعده فيكون فاصلًا بينه وبينها في الدّخول، وذكر قبلهما الظّالم لنفسه؛ لأنّه إنّما يدخلها ويتّصل بها بعد دخولهما، فتأخير السّابق في المعنى تقديم، وتقديم الظّالم في المعنى تأخير.[1].

معنى الباءِ في قولِهِ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

الباء في قوله﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ للسّببيَّة، أي بسبب إذن الله، أو للمصاحبة أي مصحوبًا بأمره وتيسيره.

نكتةُ إضافةِ الإذنِ إلى لفظِ الجلالةِ:

أضاف الإذن إلى الله تعالى لأنّه صادر منه سبحانه، فإنّه لا يكون في الكون شيء من توفيق وغيره إلا منه سبحانه وبإذنه وتيسيره، كما لا يخفى ما في هذه الإضافة من تفخيم لإذنه سبحانه وتشريف، والإذن مستعمل في التّيسير على سبيل المجاز[2].

إذنُ الله هنا هو تيسيرُه الخيرَ لعبادِهِ تجوّزًا

بلاغةُ الالتفاتِ من التكلُّم إلى الغَيْبَةِ:

وإنما التَفَتَ عن التّكلم إلى الغَيْبة فلم يَقُل: (بإذننا) بل قال: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ لغرض إظهار الاسم الجليل الذي يمنح الفخامة والمهابة لما يضاف إليه، حتى لا يتسرَّب الوهم إلى السّابق بالخيرات فيظن أنّه قد سبق إليها بمهارته، بل بتوفيق الله وتيسيره.

توفيقُ اللهِ قيدٌ في حصولِ الطّاعةِ من الطّائعِ الأوّاهِ

نكتةُ فصلِ قولِه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ﴾:

وإنما فصل جملة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ على الاستئناف المقرر لما قبله، والجملة أيضا مؤكِّدة لتكذيب الجاهلين ومخيبة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 370.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 313.

لظنونهم؛ لأنّ السّابق كلّما علا مقامه في السّبق قَلَّ حظُّه من الدّنيا، فرأى الجاهلون أنّه مُضيِّعٌ لنفسه[1]، فجاء هذا التّذييل ليؤكِّد خيبة أملهم فيما اعتقدوه في أهل اللّه أنّهم محلٌّ لسخط اللّه وغضبه لقلّة حظّهم من الدّنيا.

الجملةُ مقرِّرةٌ لفوزِ المُصْطَفَيْن، ومُخيّبةٌ لظنونِ الجاهلين

غرضُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيدِ:

الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إلى الاصطفاء المفهوم من ﴿ٱصْطَفَيْنَا﴾ أو إلى المذكور من الاصطفاء وإيراث الكتاب، أو إلى السّبق[2]، أو إلى جميع ذلك كما قال القونويّ: ولو أريد بالمشار إليه مجموع هذه الثّلاثة، لكان في غاية من الحسن واللطافة[3]، وعَلَّل الثّعلبي صحّة الإشارة إلى الثّلاثة جميعًا وأحقّيّتهم بدخول الجنة بأنّه ميراث، والبارُّ والعاقُّ سواء في الميراث مع صحة النّسب، فكذلك هؤلاء جميعًا مع صحة الإيمان[4] وإن تفاوتوا في الدّرجات.

بيانُ شرفِ المُشار إليه بالإشارةِ إليهِ بالدّلالةِ على البُعدِ

وما في اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للإشعار بعلو رتبتِه وبُعدِ منزلته في الشَّرفِ[5].

بلاغةُ القَصْرِ والتّعريفِ لطرفَيِ الإسنادِ:

قال ابن عاشور: "ضمير الفصل لتأكيد القَصْر الحاصل من تعريف الجزأين، وهو حقيقي لأنّ الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بذلك لأنّ كلّ فضل هو غير كبير إلا ذلك الفضل، ووجه هذا الانحصار أنّ هذا الاصطفاء وإيراث الكتاب جمع فضيلة الدّنيا وفضل الآخرة قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: 97]"[6].

الاصطفاءُ وإيراثُ الكتابِ جامعانِ لفوزِ العاجلةِ والآبِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 58.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 58، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 313.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 68.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 439.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 153.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 314.

أما القونويّ، فإنّه يرى أنّ الحصر المُستَفاد من تعريف الخبر وضمير الفعْل، هو إضافي أو ادِّعائيٌّ لا حقيقيٌّ تحقيقيّ[1].

معنى(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾:

(أل) في﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ للجنس، لا للعهد إذ ليس المقصود فردًا معهودًا منه.

نكتةُ وصفِ الفضلِ بأنّه كبيرٌ:

وصف الفضل بكونه كبيرًا مع ما يفيض به لفظ الفضل من معاني الكِبَر والعظمة، ثم ما يترتب عليه من إفادة منح المصطَفَيْن من العباد الخير والرّحمة، زيادة في تعظيمه وتفخيمه، ليشعر أنّ المراد الخير كلّه والرّحمة كلّها، وفي ذلك زيادة إطماع في العمل على تحصيله بالاعتناء الكامل بالكتاب الذي أورثهم الله إياه.

وصفُ الفضلِ بالكِبَرِ زيادةٌ في تفخيمِهِ وتعظيمِهِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاصطفاء والاجتباء والاختيار:

الاصطفاء هو تناولُ صَفْوِ الشيءِ، وأصل (صَفَو) يدُلُّ عَلَى خُلوصٍ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الصَّفاءُ، وهوَ ضِدُّ الكَدَرِ؛ يُقالُ: صَفا يَصْفو، إذا خَلَصَ[2]، واصْطِفاءُ اللهِ بعضَ عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافيًا عن الشّوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعرّ ذلك من الأوّل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: 75][3].

اختلافُ المفردات باعتبار صَفْوِ الشّيءِ، وخيريّته، وجبايته

والاختيار هو: تناول خير الشّيء، والفرق بينه وبين الاصطفاء كما يقول العسكري: "أنّ اختيارك الشّيء أخذك خير ما فيه في الحقيقة أو خيره عندك، والاصطفاء أخذ ما يصفو منه، ثم كثر

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 68.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفو).
(3) الرّاغب، المفردات: (صفو).

حتى استعمل أحدهما موضع الآخر، واستعمل الاصطفاء فيما لا صفو له على الحقيقة"[1] أي كثر استعماله في غير محلِّه.

والاجتباء: الجمع على طريق الاصطفاء، قال ﷻ:﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50] يقال: جَبَيْتُ الماء في الحوض: جمعته، واجتباء اللّه العبد: تخصيصه إياه بفيض إلهيّ يتحصل له منه أنواع من النّعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصّديقين والشّهداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6] وقوله: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: 50][2].

وبهذا يظهر أنّ هنالك مشتركًا دلاليًّا بين الألفاظ الثّلاثة، وقد يَحلُّ أحدها محلّ الآخر، وأنّ كل لفظ منها يقال باعتبار غير اعتبار الآخر في الفروق الدّقيقة بين ثلاثتها، فالاصْطِفاءُ: تناولُ صَفْوِ الشّيءِ، كما أنّ الاختيار: تناول خيره، والاجتباء: تناول جبايته[3].

الإذن والمشيئة والإرادة:

تشترك الثّلاثةُ في سبقِ القضاءِ والتّقديرِ، وتفترقُ فيما عدا ذلك

أما فيما يتعلق بالفرق بين الإذن وكلّ من المشيئة والإرادة فلا بد من التّفريق بين الإذن الكوني والإذن الشّرعي، أما الإذن الشّرعي فمعناه الإباحة وهو من الأحكام التّكليفية، وفيه يقال: "أذن لَهُ في الشَّيْء إذْنًا وأذينًا: أَباحَهُ بِهِ لَهُ"[4] وأما الإذن الكوني فهو نفسه المشيئة والإرادة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64] أي: بإرادته وأمره "ولا يكاد يستعمل الإذن إلا فيما فيه مشيئة به، راضيًا منه الفعل أم لم يرض به، فإنّ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 100] فمعلوم أنّ فيه مشيئته وأمره، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 29.
(2) الرّاغب، المفردات: (جبى).
(3) الرّاغب المفردات: (صفو).
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 72.

﴿ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 102] ففيه مشيئته من وجهٍ، وهو أنّه لا خلاف أنّ الله تعالى أوجد في الإنسان قوة فيها إمكان قبول الضّرب من جهة من يظلمه فيضرّه، ولم يجعله كالحجر الّذي لا يوجعه الضّرب، ولا خلاف أنّ إيجاد هذا الإمكان من فعل الله، فمن هذا الوجه يصح أن يقال: إنه بإذن الله ومشيئته"[1].

وأمّا عن الفروق الدّقيقة بين المشيئة والإرادة، فإنّه من شدة التّقارب الدّلالي بين الإرادة والمشيئة، ألفينا المعجميين يعرفون كُلًّا منهما بما يعرف به الآخر، فمثلًا يقول ابن منظور: المَشيئةُ، مَهْموزَةً: الإرادةُ[2].

وفرَّق العسكري بينهما، بأنّ الإرادَة تكون لما يتراخى وقته ولما لا يتراخى، والمشيئة لما لم يتراخ وقته، قال: والشّاهِد أَنَّك تَقول: فعلتُ كَذا شاءَ زيدٌ أَو أَبى، فيقابل بها إباه، وذَلِكَ إنما يكون عِنْد محاولة الفِعْل[3].

ونزيد: أنّ لفظ الإرادة يُطلق على نزوع النّفس إلى الشّيء مع الحكم فيه بأنّه ينبغي أن يُفْعَل، أو لا يُفْعَل، ثم إنّه يستعمل مرّة في المبدأ، وهو: نزوع النّفس إلى الشّيء، وتارة في المنتهى، وهو الحكم فيه بأنّه ينبغي أن يُفْعَل أو لا يُفْعَل، فإذا استعمل في الله فإنّه يراد به المنتهى دون المبدأ، فإنّه سبحانه يتعالى عن معنى النّزوع، فمتى قيل: أَرادَ الله كذا، فمعناه: حكم فيه أنّه كذا وليس بكذا، نحو:﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: 17][4] وأما مع البشر، فإنه يستعمل في أحد المعنيين المبدأ أو المنتهى، أو في كليهما معا.

والمَشيئَةُ عند أكثر المتكلّمين كالإرادة سواء، وعند بعضهم: المشيئة في الأصل: إيجاد الشّيء وإصابته، وإن كان قد يستعمل في التّعارف موضع الإرادة، فالمشيئة من الله تعالى هي الإيجاد، ومن النّاس هي الإصابة[5].

وعلى هذا، فإنّ الألفاظ الثّلاثة تشترك في معنى سبق القضاء والتّقدير، وعلى إيجاد الأشياء وفق إرادة الله ومشيئته وإذنه الكوني التّقديري.

(1) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ريد).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124.
(4) الرّاغب، المفردات: (رود) والكفويّ، الكليّات، ص: 74.
(5) الرّاغب، المفردات: (شيأ).

المسابقة والمسارعة والمنافسة:

المسّابقةُ المشاركةُ، والمسارعةُ التّعجُّلُ، والمنافسةُ رغبةٌ متقدّمةٌ

لا يُشَك في وجود تقارب دلاليّ بين لفظي المسّابقة والمسارعة، فقد يفسّر كلّ من اللّفظين بالآخر في الجملة، فالمسابقة إلى الشّيء مسارعة إليه، وكذا المسارعة، لكن مع هذا تبقى لكلّ لفظ منهما خصوصية نسعى هنا إلى اكتشافها، وخصوصا أنّه في الآية الكريمة جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: 61] فكلاهما في معنى السّبق والتّقدم والمبادرة إلى الطّاعة[1]، فما الفرق بينهما إذن؟.

أصل السَّبْقِ: التّقدّم في السّير، والاِسْتِباقُ: التَّسابُقُ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: 17][2] والمسابقة مفاعلة منه، أي لابدّ فيه من متسابقَيْن على الأقل ليقوما بالمسابقة والمنافسة فيما بينهما، ومنه المسابقة بالخيل والإبل.

وأمّا المسارعة فهي من سرع وأصله خلاف البطء[3] بما يعني المبادرة إلى الشّيء والتّعجل إليه فلا يستدعي مشاركة، كما في المسابقة.

وعليه يكون الفرق بين قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61] أي يبادرون إليها حتى لا تفوتهم، ومعنى ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: 61] أي سابقون غيرهم ممن يظنون أنّهم لاحقوهم أو متقدمون عليهم.

وأمّا المنافسة، فهي الرّغبة في الشّيء والانفراد به، وهو من الشّيء النّفيس الجيد في نوعه، ونافست في الشّيء منافسة ونفاسًا، إذا رغبتَ فيه[4]، فالمنافسة إذن هي الرّغبة التي تتقدم المسابقة والمسارعة للحصول على الشّيء النّفيس.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 184.
(2) الرّاغب، المفردات: (سبق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سرع).
(4) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: (نفس).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-731-00-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»